التربية الدينيّة ودورها في حياة الفرد والمجتمع

الدكتور محمد عبد الله عطوات[1]

الوحدة

يُعنى الدين بمبادئ رئيسة في طليعتها الإيمان بالله الواحد، والإيمان باليوم الآخر والشـريعة التي ترسـم لكل ذي دين طرائق السلوك الفردي والاجتماعي. وتؤكد جميع الدراسـات أنّ التربية الدينيّة تولي الفرد والمجتمع عناية فائقة، فهي تسـعى إلى تربية الفرد تربية سليمة وتهدف إلى تنمية شخصيّته وتهذّبها من جميع النواحي: الروحيّة، والوجدانيّـة، والخلقيّة، والعقليّة، والاجتماعيّة والجسميّة لتصل به إلى مراتب السمو، وإلى غاية ما قدّر الله له من الكمال البشريّ؛ بحيث يصبح متّصفاً قولاً وفعلاً بالآداب الفرديّـة والاجتماعيّـة والأخلاق الفاضلة، ومتمسّكاً بدينـه، وملتزماً بما أمره الله به، ومنتهياً عما نهاه عنه.

١- المقدمة

نقـدّم هذا البحث إلى المثقّفين بوجه عام، والمدرّسين بوجه خاص، ونحن على يقين من أنّ دراساتهـم السابقـة وآفاقهم الثقافيّة تهـيء أمامنا جواً ملائماً للتوسّـع والتعمّق في ما نريد عرضه من المعلومات والخبرات الخاصّة بمناهج الدين الإسلاميّ، وطرق تدريسه في المرحلة الإعداديّة.

كما نؤمن بأنّ الإلمام بخصائص نموّ المتعلّمين في هذه المرحلة ضرورة لازمة لفهم أساليب التعامـل معهم، وتوجيه المواقـف التعليميّة الوجيهـة التي تساير طبائعهـم وشخصيّاتهم، وتفيد منها تحقيقاً لاستمرار النمو وسلامته.

إنّ تلميذ المرحلة الإعداديّة يجتاز فترة الطفولة المتأخّرة إلى فترة المراهقة، وهي حلقة خطـيرة من حلقات نمـوه، تعتريه فيها تغـيّرات عنيفة: مـن النواحي الجسميّـة، والعقليّة والوجدانيّة؛ إذ تطرأ على مختلف أعضاء جسمه تغيّرات ظاهرة، وتتفتّح مقدّراته، ويخطو ذكاؤه سريعـاً إلى نهاية مستـواه، وتكاد اهتماماته تتحدّد، وقدرتـه على التجريد والتصوّر المعنـويّ، والتفكـير الموضوعـيّ تأخذ مكانها من حياتـه العقليّة، فتحرّره نوعـاً ما من قيود المخـاوف، وعـالم التخيّـل الطفليّ. ثم هو في هـذه الفترة يزداد معرفة بالعـالم بما يدرس مـن علوم وفنون، ومـا يكتسب من خبرات اجتماعيّة. وكلّ هذه العوامـل الجسميّة والعقليّة والوجدانيّة تستتبع تضخّم اهتمام المراهق بذاته، وتطلعه إلى توكيدها، وتتضافر مع النضج الجنسيّ على إحداث ثورة عامّة في شخصيّته، وتفتح شامل لجميع قواه النفسيّة.

ولا شـك في أن التغايـر بـين شخصيّة التلميـذ وخصائص نموه في المرحلـة الابتدائيّة، وشخصيّتـه وخصائص نمـوه في المرحلة الإعداديّـة يستتبع بالضرورة تغايـراً في أساليب التعليم والتوجيه التربوي لكلّ منهما، وأنّ الشعور الدينيّ يتطوّر تطوّراً ملحوظاً بين مرحلتي الطفولـة والمراهقة، ومن ثمّ كان من المتوقّع أن تنحو طرائق التدريس في المرحلة الإعداديّة منحى يغاير -إلى حد ما- أساليب تدريس الدين في المرحلة الابتدائيّة.

إنّ هدفنا في ما نقدّم من هذا البحث هو أن نعرض للقارئ طائفة من الخبرات التربويّة والأساليـب التعليميّة الملائمة لتدريس مناهـج الدين الإسلاميّ بفروعه المتنوّعة في المرحلة الإعداديّة، وأن نكشف -قدر الاستطاعة- عن خصائص النمو المميّزة لفترة المراهقة التي يمـرّ بها تلميذ المرحلة الإعدادية، وبخاصة ما يتّصل منها بالشعور الدينيّ ومسالك تقويته

في نفوس المتعلّمين، لتستأنس بكلّ ذلك في ما تواجه من المواقف التعليميّة داخل الفصل وخارجه.

٢- الأهداف التعليميّة

أ- تحديد وظيفة الدين في حياة الفرد والمجتمع.

ب- تقدير دور الإسلام في الاجتماع البشريّ.

ج- إدراك أهميّة العاطفة الدينيّة في مرحلتي الطفولة والمراهقة.

د- تحديد دور المدرسة في تنمية العاطفة الدينيّة.

هـ- تحديد أنواع النشاطات الدينيّة التي تعزّز توجّه الإنسان الفطريّ نحو الدين.

و- تمثّل معاني بعض الآيات القرآنيّة الكريمة والأحاديث النبويّة الشريفة.

ز- اتّخاذ مواقف إيجابيّة من التوجّهات الدينيّة وممارسة العبادة المعززة لهذه التوجّهات.

٣- وظيفة الدين في حياة الفرد والمجتمع

عناية الإسلام بالاجتماع البشريّ:

الإسلام عقيدة فرديّة اجتماعيّة، وشريعة تضع للناس منهاجاً شاملاً للحياة، يكفل لهم -ما استقاموا على هديه- سعادةَ الدنيا والآخرة.

والإسلام في تشريعه ينظر بعين الاعتبار إلى صلاح الاجتماع البشريّ وسلامته مبتدئاً من اللبنة الواحدة فيه وهو الفرد، إلى المجتمع كلّه، فهو ينظر إلى الفرد والمجتمع نظرة متوازنة، فيعطي كلاً منهما حقه من الرعاية، ويعمل على أن يسير بهما في طريق سويٍّ إلى الله.

إنّه يولي الفرد عنايته، فيسعى إلى تثبيت عقيدته، وعقد الصلة القويّة الدائمة بينه وبين خالقه، وإلى إيقاظ ضميره الدينيّ، كما يسعى إلى السموّ بنفسه، وتكميلها بالأخلاق الفاضلة والآداب الفرديّة والاجتماعيّة. ومن هذا الفرد الصالح المتمسك بدينه يتكون بالضرورة المجتمع الفاضل.

قال تعالى وهو أصدق القائلين:

﴿...قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾١٥﴿ يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٢).

وقال: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾** (٣).

وقال: **﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾** (٤).

والإسلام – إلى جانب ذلك- يولي المجتمع عنايته؛ إذ يُعنى ببنائه على أسس سليمة، وتنظيم العلاقات التي تحكم وجوده في النواحي السياسيّة، والاقتصاديّة والاجتماعيّة، كما يُعنى بصيانته من عوامل الفساد والانحلال، ورسم السبل للحفاظ على قوّته، ودفعه إلى التقدّم على اختلاف الأعصر والبيئات.

وقد وعد الله المجتمع الذي يستقيم على هدي الدين، ويسوده التعاون على البرّ والتقوى بالبقاء، والبقاء، والحياة، الآمنة الراغدة.

قال تعالى: **﴿وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾** (٥).

والمتأمّل في جوانب الديانة الإسلاميّة يدرك مقاصدها إلى تكوين الفرد الصالح والمجتمع الفاضل، في كلّ ما تضمنّته من عقيدة وتشريع لغرس الإيمان الدينيّ، وترسيخه وتنظيم علاقة المرء بربه (العقائد والعبادات)، وتنظيم علاقته بغيرة من أفراد المجتمع (النظم والمعاملات)، والسموّ بنفسه إلى غاية ما قدّر لها من الكمال البشريّ (الأخلاق والآداب).

وسنعرض في ما يلي بشيء من التوضيح والتفصيل لوظيفة الدين في حياة الفرد والمجتمع:

أ- وظيفة الدين في حياة الفرد

(١) فطريّة التديّن في الإنسان:

ليس الدين في حياة الفرد عرضاً خارجاً عن طبيعته، ولكنّه نزعة فطرية راسخة لديه، هو شيء ألصق بالغريزة البشريّة، وأشدّ لزوماً لها، فكلّ إنسان يجد من نفسه أنّه مخلوق من قوة أرفع من قوته. وهو وإن يكن مخيّراً في بعض فعله، إنّما هو يسير في جله وأخطره. محكوم بإرادة تصرفه. وتشعر كلّ نفس أنّها مسوقة لمعرفة تلك القوّة العظمى، فتطلبها من حسّها تارة، ومن عقلها أخرى.

كما تتمثّل نزعة التديّن الفطريّة في الاعتقاد بأنّ النفس الإنسانيّة باقية بعد الموت، وأنّ لها حياة أخرى بعد هذه الحياة، وأنّ سعادتها أو شقاءها في تلك الحياة الأخرى رهن بسابق أعمالها في الدنيا.

ويقول الإمام الشيخ محمد عبده في تصوير ذلك الشعور:

«هذا الشعور العام المنبث في جميع الأنفس عالمها وجاهلها. لا يمكن أن يُعدَّ ضلة عقليّة أو نزعة وهميّة، وإنّما هو من الإلهامات التي اختصّ بها هذا النوع. شعور يهيج بالأرواح إلى تحسّس هذا البقاء الأبديّ، وما عسى أن تكون عليه متى وصلت إليه.»[٦]

والعقل الإنسانيّ إن اهتدى إلى شيء في ما يتعلّق بالله أو اليوم الآخر، فإنّما يهتدي إلى قليل لا يغنيه، ولا يروي تعطّشه. وقد كان من حكمة الله الذي تكفل -فضلاً منه ورحمة- بتعليم الإنسان وإرشاده أن يدلّ عباده عن طريق الدين على ذاته، ويحدّثهم عن جلاله، وما خفي على العقول من شؤون حضرته العليّة، بما يشاء أن يعتقدوا فيه، ويبلغهم عن أحوال الآخرة ما لا بدّ لهم من معرفته، ويوجّههم إلى ما هو مناط سعادتهم وشقائهم في ذلك العالم المغيّب عنهم، اللاصق بمشاعرهم وأعماق ضمائرهم. وهكذا يشبع الدين نزعة فطريّة في الإنسان؛ إذ هو مدفوع بطبعه إلى التديّن، وفي فطرته الوعي بوجود الله.. «إنّ الإيمان شوق عميق من أشواق النفس الإنسانيّة ينساق إليه الإنسان بدافع من فطرته.»[٧]

الدين هو الطريق إلى إشباع هذه النزعة الفطريّة المتأصّلة في الطبيعة البشريّة قال

تعالى: ﴿... **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا...**﴾،[٨] والدين هو الذي يريح ضمير الإنسان في ما يجهله من شؤون الغيب وأسرار الكون، لأنّها شؤون وأسرار لا يحيط بها عقله المحدود، ولا تكشف له عنها ظواهر الزمان والمكان.

٢- الدين سبيل الطمأنينة والاستقرار النفسيّ:

والإيمان بالدين جزماً ويقيناً هو عماد الطمأنينة القلبيّة، والتخلّص من الظمأ الروحيّ، والقلق النفسيّ الذي يعيش فيه أولئك الحيارى الذين تعطلت ضمائرهم بالخلو من التديّن؛ لأنّ الدين هو السبيل إلى استمرار اليقين والطمأنينة الروحيّة في مواجهة الأحداث والتقلبات، والثبات أمام الطوارئ والغير.

إنّ الفرق كبير بين فرد عامر القلب باليقين والإيمان بالله، يسلم وجهه إليه، ويدعوه منيباً إليه عند الضر، وفرد خاوي الضمير، مضطرب الشعور، يمضي في الحياة بلا سند يلوذ به، وبغير رجاء يسمو إليه. «وقلّ أن ترى إنساناً معطل الضمير على شيء من القوّة والعظمة إلا أمكنك أن تتخيّله أقوى من ذلك وأعظم إذا أحلت العقيدة في وجدانه محلّ التعطّل والحيرة»[٩].

«إنّ الله هو الحقيقة الفكريّة الكبرى الأولى التي يستنتجها العقل من الطبيعة، ويرتاح بالوصول إليها من ألم الفراغ، والشك، والجحود، والإنكار.»[١٠]

قال تعالى: ﴿**فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾[١١]

وقال: ﴿**أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[١٢]

٣- وتحقيق الكرامة الإنسانيّة وإحياء الضمير:

والدين بمعناه العامّ يتضمّن جوانب ثلاثة: الإيمان بالله الواحد، والإيمان باليوم الآخر، والشريعة التي ترسم لكلّ ذي دين طرائق السلوك الفرديّ والاجتماعيّ. والإيمان بالله الواحد عقيدة تُعتنق، ولها أثرها السلوكيّ: فالله وحده هو ربّنا ومالك أمورنا، وهو الصمد المقصود في الحوائج، ولا وساطة في نظر الإسلام بين الله وعباده.

٤- تكوين الفرد الصالح:

والدين الإسلاميّ يسعى إلى تربية الفرد الصالح وتكوين شخصيّته تكويناً سليماً ينعكس أثره في حياته الخاصّة والعامّة، وفي سبيل هذه الغاية يتناوله بالتربية والتهذيب من جميع النواحي: الروحيّة، والوجدانيّة، والخلقيّة، والعقليّة، والاجتماعيّة، والجسميّة، ليصل به في مراتب السمو إلى غاية ما قدر له من الكمال البشريّ.

وللإسلام في هذه التربية وسائل وأساليب متعدّدة، لا يمكن حصرها أو الإحاطة بها، ومنها في التربية الروحيّة:

تصحيح عقيدة الفرد، وتحرير وجدانه من عبادة غير الله، والخضوع لغير خالقه وعقد الصلة الدائمة بين العبد وربّه عن طريق دعوته إلى التفكير في خلق الله، وما يحيط به من مظاهر الإبداع في الكون ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا...** ﴾[١٣]

وعن طريق الشعائر الدينيّة والعبادات التي هي خطط ربانية حكيمة لتزكية القلب ودعم الإيمان، وتهذيب النفس: فالعبادات على اختلاف صورها واتجاهاتها من صلاة، وصوم، وزكاة، وحج، تعبير عن شعور المرء نحو ربّه، وتمثل جلاله، وتحقيق معنى العبوديّة والإذعان له، وهي تنبّه الإنسان دائماً إلى وجوده الروحيّ الذي يجب ألا تشغله عنه شواغل الجسد والمادّة.

والعبادات إذا أُدّيت على ما ينبغي لها من خلوص النيّة لله، وشرف القصد كانت سبيلاً إلى تكميل النفس وتهذيبها والترقّي بها في مدارج السموّ الروحيّ. ثم هي تنبه ضمير الإنسان على الدوام إلى الوجود الخالد الباقي في الدار الآخرة؛ لكيلا يستغرق في وجوده الزائل المحدود في حياته الدنيا.

ثم هي إلى ذلك كله وسيلة إلى تقويم سلوك الفرد وتنظيم علاقته بمجتمع.

وفي النصوص التالية إشارات إلى شيء من آثار العبادات في تهذيب النفس، وتقويم السلوك.

قال تعالى: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ**﴾.[١٤]

وقال صلى الله عليه وآله سلم في الصوم «الصيام جنة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا

يرفثُ، ولا يصخب فإن سابّه أحد أو قاتله فليقل: إني صائم، إني صائم». والصوم إلى ذلك تدريب عمليّ لتقوية الإرادة وامتلاك زمام النفس، وممارسة الفضائل وآداب السلوك، فإذا لم يأخذ الصائم نفسه بآداب الصوم ترويضاً لها وتهذيباً أهدر صومه. وفي الزكاة يقول جل شأنه: ﴿... **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ**﴾ (١٥)

وقال تعالى: ﴿**وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ**﴾. (١٦)

وفي التربية الوجدانيّة: ترى الإسلام يعترف بالانفعالات والعواطف الإنسانيّة، باعتبارها جزءاً من الطبيعة البشريّة، ولكنّه يروّض النفوس على مقاومة النزعات الجامحة والأهواء الفاسدة، وعلى تلبية الدوافع الفطريّة من غير إفراط ولا تفريط. «إنّ القلب الذي لا يخاف لا فضل له في الشجاعة، والقلب الذي لا يحزن لا فضل له في الصبر، إنّما الفضل في الحزن والغلبة عليه، وفي الخوف والسمو عليه.»(١٧)

وقال تعالى: ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾. (١٨) ووعد الله المتّقين الذين يملكون قياد أنفسهم في جميع الحالات ويوجّهونها وجهة الخير جنّة عريضة ومحبة منه ورحمة. فقال: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾. (١٩)

وفي **التربية الخلقية**: يرسم القرآن الكريم والسنة النبوية قولاً وفعلاً منهاجاً قويماً شاملاً لتكميل النفس الإنسانيّة بالأخلاق الفاضلة والآداب المحمودة وتطهيرها من النقائص والرذائل حتى تصل إلى أبعد غاية مقدورة للإنسان.

ويوجّه الإسلام إلى هذه التربية الخلقيّة من العناية والاهتمام ك ما لها من الأثر العظيم في حياة الفرد والمجتمع حتّى جعل الرسول ﷺ إتمامها غاية بعثته فقال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، وقال: «أثقل ما يوضع في الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق».

ومنهاج التربية الخلقيّة في الإسلام يشمل التوجيه إلى الفضائل الخلقية والأمر بها والترغيب فيها، واتخاذ الوسائل المتنوعة لتثبيت القيم الفاضلة، كما يشمل ما يرتبط بهذه

الفضائل من ألوان السلوك القويم.

وهـو ما يعبّر عنه القرآن الكريم بالعمل الصالح، والاستقامـة، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا**﴾ (٢٠)

ويشمل منهاج التربية الخلقيّة كذلك النهي عن الرذائل وما ينبعث عنها من انحرافات السلوك والمحظورات التي حذّر الله من مواقعتها في السرّ والعلن. قال تعالى: ﴿**وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ**﴾ (٢١) وأيضاً: ﴿ **إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا**﴾ (٢٢).

إنّ الإسـلام يحمد من الأخلاق في كلّ شأن من شـؤون الإنسان أنّها وسيلة إلى الكمال، مستهدفـاً تكميـل الفرد الذي هو نواة الاجتماع البشـريّ. وفي التربية الخلقيّة يربط الدينُ قلـبَ الإنسان وضميرَه بربّه؛ لعلمـه أنّ الإله مطّلع على خفاياه ﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ**﴾ (٢٣)، ويراقبه حتّى في خلجاته وأحاديث نفسه.

ومن الفضائل التي يدعو إليها الإسلام: الصدق، والأمانة، والوفاء، والرحمة، والعطف، والصـبر، والعفو، والعدل، والحلـم، والرفق.. وغيرها. كما أنّه يدعـو إلى كثير من الآداب وألـوان السلوك التـي تنبثق عن هذه الفضائـل، وتتدرج في نطاق الكمـال الخلقيّ: كحسن المعاملـة، ورعاية الضعفاء، والإحسان إلى الأقارب والجـيران، ومساعدة المحتاجين، وكف الأذى عن الناس، والتودد إليه.. وغير ذلك.

ومـن الرذائل التـي ينهى الإسلام عنها: الكذب، والخيانة، والغـدر، والقسوة، والظلم، والأثرة، والكبرياء، والحقد.. وغيرها كما أنّه ينهى عن كثير من ألوان السلوك التي تنبعث عـن هذه الرذائل وترتبط بها: كإيذاء الناس، والسخرية منهم، واللمز، والتنابز بالألقاب، وسوء الظن، والتجسس والغيبة، والنميمة... وغيرها.

ولا يـدع الإسـلام في هذا المجـال الإرشـاد إلى آداب السلـوك في أدقّ تفصيلاتها حتّى صـحّ أن يقـال: «إنّ أدب الإسـلام يخـرج الإنسـان الاجتماعـي الكامـل في أدق صورة وفي أجملها»(٢٤).

إقرأ في ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا**﴾(٢٥). وفي ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾.(٢٦) وغيرها من الآيات الكريمة التي تؤكد هذه المعاني.

والتربية العقليّة: قوامها في الإسلام احترام العقل، وإعطاؤه حرية التفكير في كل مجال إلا الغيبيّات التي يعييه الخوض فيها.

فهو يطالبه دائماً بالتفكير والتأمّل ويجعلهما عماد الإيمان بالله وتوحيده، وينبّه الفكر الإنسانيّ إلى كثيرٍ من ظواهر الكون الجديرة بالبحث والنظر لاستنباط قوانينها العامّة، وأوجه العبرة والحكمة فيها قال تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾[٢٦]، وقال: ﴿ **قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ...**﴾[٢٧].

وفي تفسير هذه الآية يقول بعض المفكرين من قادة الإسلام في العصر الحديث: «إنّ السمع هنا يرمز إلى استعماله في إحراز المعرفة التي اكتسبها الآخرون وخصوصاً من أجيال البشريّة، والبصر يعني تنمية هذه المعرفة بما يضاف إليها من ثمرات الملاحظة والبحث والتجريب، والفؤاد يرمز إلى تنقية هذه المعارف من أدرانها وأوشابها، ثم استخلاص النتائج منها واستخدامها في إسعاد الفرد والمجتمع وفي كل غرف بناء».[٢٨]

والإسلام يلزم بالتعلم واستمراره مدى الحياة، فيقول النبي ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»، ويقول: «أطلب العلم من المهد إلى اللحد»... «الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق الناس بها».

وفي توجيه الإسلام للعقل الإنسانيّ إلى التفكير والبحث تراه يطوف به في جميع أنحاء الكون سمائه وأرضه، حيوانه ونباته، وإنسانه، حيه وميته، للانتفاع بخواص المادة وما خفي من أسرارها وللوصول إلى ما وراء ذلك من أدلّة على قدرة الخالق جل شأنه: ﴿ **صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾[٢٩].

وفي التربية الاجتماعيّة: نرى الإسلام يربط الفرد بمجتمعه، ويربى فيه الشعور بالولاء له والانتماء إليه قال عليه الصلاة والسلام: «خالط الناس ودينك لا تكلمنّه»، وقال: «مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادّهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسهر»، وقال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه».

كما يربّيه على القيم والمبادئ الخلقيّة التي تكفل له المواءمة الاجتماعيّة بينه وبين غيره من أفراد المجتمع: كالصدق، والأمانة، والوفاء، وحسن الجوار، ولين الجانب، والتواضع، والتسامح، وبذل المعونة، ونحوها وينأى به عن الصفات التي تسيء إلى علاقاته بغيره.

وتمتد هذه التربية إلى تعريفه بحقوقه، ليستمسك بها ولا يفرط فيها. وأخص هذه الحقوق بالذكر حق التمتّع بالعدالة الاجتماعيّة، وحقّ الحرية في كلّ آفاق الحياة في الاعتقاد، والفكر، والعلم، والقول، والتملك، والتصرف، واختيار نظم الحكم والاجتماع في إطار الدين.[٣٠] قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا...**﴾[٣١].

وقال عليه الصلاة والسلام: «من قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون عِرضه فهو شهيد».

كما تمتدّ هذه التربية إلى تعريفه بواجباته نحو ربه، ونحو نفسه، ونحو أسرته، ونحو مجتمعه ووطنه، وتحرص على تنمية الشعور بالمسؤولية لديه، ويتجسد ذلك في التكاليف الشرعية التي تبدأ مع سن البلوغ.

فهي تدريب عملي مبكر على تحمل المسؤولية بحمل أمانة التكاليف.

قال عليه السلام: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته...».

وفي هذه التربية الاجتماعيّة يقف الإسلام موقفاً وسطاً بين مطالب الجسد ومطالب الروح، وبين العمل للدنيا والعمل للآخرة، فلا يفرض على المسلم الرهبانية والانعزال عن معترك الحياة والانقطاع للعبادة تأهباً للآخرة، ولا يرضى له الاستغراق في ماديات الحياة وشواغل العيش ناسياً شؤون روحه والاستعداد لآخرته. «ليس في الإسلام خصام بين الروح والجسد، وليس فيه خصام بين المعاش والمعاد»[٣٢]؛ وذلك أنّ الإنسان في نظر الإسلام كل لا يتجزأ، والكمال المنشود له يتحقق في ارتقائه مادياً ومعنوياً.

ولقد أحل الإسلام للمسلم التمتع بالطيبات والتجمل بأنواع الزينة، وحثه على السعي والتناقس في سبيل مآرب الحياة الكريمة، ولكنه رسم له في ذلك دائرة، يجب ألا يتخطى نطاقها، فنهاه عن تحريم ما أحل الله أو استحلال ما حرم؛ لأنه تعالى يحل الطيبات ويحرم الخبائث، وأمره كذلك أن يلزم حدود الاعتدال حتى لا يقع في اضرار التهور والإسراف، قال تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**﴾[٣٣].

وهكذا «يجمع التشريع الإسلامي بين مطالب الروح والجسد ومصالح الدنيا والآخرة بلا تناقض ولا تنازع، ويوحد شخصيّة المسلم فلا يوقعه في فصام وجداني يشق عليه

احتماله»[٣٤].

قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا...﴾[٣٥].

وقال عليه الصلاة والسلام: «ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه، بل خيركم من أخذ من هذه وهذه».

وهكذا يؤدّي الدين وظيفة في حياة الفرد، إشباعاً لنزعته الفطريّة إلى التديّن، وإضفاء للسكينة والاستقرار على نفسه وحياته، وإحياء لضميره، وتحقيقاً لكرامته الإنسانيّة، وتربيةً له تربية شاملة متكاملة من جميع النواحي الروحيّة، والوجدانيّة، والخلقية، والعقليّة، والاجتماعيّة، والجسميّة.

ومن هذا الفرد الصالح يتكوّن المجتمع الإنسانيّ الفاضل الذي يجد هدايته ورشده - على اختلاف الأعصر والبيئات - في مبادئ الدين، التي لا تعوقه عن أيّة غاية تفتحها أمامه أشواط العلم والحضارة.

ب- وظيفة الدين في حياة المجتمع

يتمثّل الإطار العام لوظيفة الدين في حياة المجتمع ذا شعبتين كبيرتين:

أولاهما: بناء الاجتماع البشريّ على قواعد وأركان متينة.

والثانية: صيانة هذا البناء وحمايته من عوامل الفساد والانحلال بما يكفل استمرار صلاحه وبقائه إلى الأجل الذي قدر الله.

ولقد أدّت الشريعة الإسلاميّة وظيفتها في بناء الاجتماع البشريّ والحفاظ عليه بمجموعة وافية من المبادئ والقواعد تكفل للناس - لو أحسنوا اتباعها- أن يعيشوا إخوة، متحابين، يوجه سلوكهم ضمير المؤمنين بالله، الذين يرجون رحمته، ويخافون عذابه.

أولاً: بناء المجتمع

تكوين الفرد الصالح:

أول أساس وضعه الإسلام لبناء الاجتماع البشريّ هو عنايته بتكوين الفرد المؤمن الصالح على الصورة التي سبق توضيحها، ليكون لبنة سليمة في البناء الكبير للمجتمع

الإسلامي.

تأسيس الأسرة وصيانتها:

ومن هؤلاء الأفراد الصالحين ذكوراً وإناثاً عني الإسلام بتأسيس الأسرة – وحدة الاجتماع البشريّ- ورعايتها وتنظيم شؤونها. ومن الطبيعي أن ينعكس نوع الأسرة وصفاتها على المجتمع، وأن يكون المجتمع صورة مكبرة لحال الأسر المكونه له.

والزواج في نظر الإسلام هو الطريق المشروع لبناء الأسرة، والوسيلة لتنظيم العلاقة بين الرجل والمرأة، ومنع الشيوع فيها، والفوضى المؤدية إلى البغضاء والتناحر وسفك الدماء.

قال تعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً...**﴾ (٣٦).

ومتى اكتمل وجود الأسرة بعقد الزواج، فإنّ التشريع الإسلاميّ يرعى هذا الرباط المقدس أعظم رعاية، ويحوطه بسياج من الضمانات التي تكفل حمايته وبقاءه حتّى تحقّق الأسرة وجودها، وتؤدّي رسالتها في المجتمع على خير وجه.

ويتّجه التشريع الإسلاميّ في هذا الصدد إلى إقرار المبادئ والاتّجاهات النفسيّة والاجتماعيّة، والسلوكيّة التي تكفل دعم العلاقة الزوجيّة، وإلى رفع شأن المرأة، وتقرير حقوقها في عدالة، لتحقيق التوازن بين دعامتي الأسرة (الرجل والمرأة) كما يعتني التشريع الإسلامي أيضاً بتحديد الواجبات والحقوق في محيط الأسرة: الواجبات المتعلقة بالرابطة الزوجيّة؛ أي واجبات الرجل لزوجته، والمرأة لزوجها، والمتعلقة برابطة الأبوة والأمومة أي واجبات الأب والأم نحو أبنائهما. وواجبات البنوة أي واجبات الأولاد نحو آبائهم وأمهاتهم، ثم واجبات الإخوة نحو بعضهم البعض، ولم تغفل الشريعة –مع كل ذلك- احتمالات الشقاق والنزاع في الأسرة، فرسمت الطريق لمعالجة مشكلات الأسرة على هدى من روح الإسلام ومبادئه.

تنظيم العلاقات في المجتمع:

واستكمالاً لبناء المجتمع وضع الإسلام أسس العلاقات التي يجب أن تسوده، وتحكم حياته في نواحي الاقتصاد، والسياسة، والاجتماع مستهدفاً بذلك تحقيق مصالح الناس

والوفاء بحاجاتهم، وإسعادهم في الدنيا والآخرة.

(أ) العلاقات الاجتماعيّة:

يقيم الإسلام العلاقات بين الناس على أسس روحية راسخة من الإخاء والمساواة والتكافل الاجتماعي، فلا تفاضل بينهم من حيث طبيعتهم الإنسانيّة، ليس منهم شعب مختار، أو سلالة ممتازة، ولا يختلف نظره إليهم باختلاف الألوان، والدماء، والأجناس واللغات... أو غيرها.

ولكنهم يتفاضلون على أسس خارجة عن ذلك: كالتفاوت في الكفاية، والعلم، والأعمال، والأخلاق. قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[٣٧].

وقال عليه الصلاة والسلام في خطبة الوداع: «أيّها الناس إنّ ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، ليس لعربيّ على عجميّ، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى».

وليس هناك احتكار من أحد لفضل الله؛ لأنّه رب العالمين وإله الجميع، إيابهم إليه، وحسابهم عليه. قال تعالى: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ...**﴾[٣٨].

والإسلام يقرّر الأخوة شعاراً للمجتمع الإسلامي، ومقتضى الأخوّة التعارف والتناصر، والتعاون، ونفي التحاسد، والتباغض، والتظالم، قال تعالى: ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾[٣٩]. وقال الرسول ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه».

وقال: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، قيل يا رسول الله هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً؟ قال: تأخذ على يده».

والتشريع الإسلامي على اختلاف مجالاته يؤكّد هذه الأخوّة، والمساواة، فالدستور الدينيّ دستور عام شامل يربط الناس بربهم، ويوثق الصلة بينهم، وهم يتعاملون في ظله وفق مبادئ وقواعد عادلة متماثلة، ودماؤهم وأموالهم، وأعراضهم، وأماناتهم مصونة بحكم الدين، وحقوقهم في الحياة، والأمن، والتعلم، والعمل والتملك والتصرف سواء، لا ظلم، ولا تغابن.

وهـم إزاء القانـون السمـاوي والتكاليـف الشرعيـة سـواء: في العقيـدة، والعبـادات، والمعامـلات، والآداب، لم يُعـف مسلـم مـن تكليف أو يُخصـ بتشريع لفضـل مزية، كذلك هـم يستوون في الحساب على موقفهم من الشريعـة، وجزاؤهم معلق على قدر استجابتهم لهـا، وعملهم بأحكامها. قال تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**﴾[٤٠]. وقال: ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى × وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى × ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى**﴾[٤١].

ولقـد استوعـب التشريع الإسلامـي عناصر الاجتمـاع البشريّ من الرجـال والنساء، فلـم يفرق بـين الرجل والمرأة إلا في بعض الفروع حسبما تقتضـي طبيعة تكوين المرأة. قال تعالى: ﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ**﴾[٤٢].

واعتمـد التشريـع الإسلامـي في بناء المجتمـع على أن ينمّـي في نفس كلّ فـرد الشعور بالمسؤولية الجماعيّة، ويدفعه إلى الإسهام في المجتمع بنوع من المشاركة العمليّة والوجدانيّة، حتـى يخفف مـن حدة غرائز الإثرة والانفرادية، ويقوي الروابـط بين الناس، فيتوطد بناء المجتمـع، ويخلو مـن نزعات الحقـد والضغينة، وعوامـل التفكك والهدم. قـال النبي ﷺ: «**كلكـم راعٍ، وكلكـم مسـؤول عن رعيتـه**».

والتكافل الاجتماعي امتداد طبيعي للاضطلاع بالمسؤوليات المباشرة في محيط الأسرة، وكثـيراً مـا تنتقل الصفـات والروابط المحمودة مـن مجال الأسرة الصغـيرة إلى مجالات الأسرة الكبيرة وهي الأمة.

ومظاهـر التكافـل في حياة المجتمـع متعددة ومسالكـه متشعبة، فالمؤمنـون في المجتمع الإسلامي إخوة: كلّ منهم كافل لأخيه؛ أي متضامن معه يحب له من الخير ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لها، ويندفع في ظل هذا الشعور إلى العمل الإيجابي لجلب الخير له، ودفع الشر عنهو ومشاركته في السراء والضراء.

قال تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾[٤٣].

فالمؤمنـون يتعاونـون في العمل النافع للمجتمـع، ويتعاونون في أوقـات المحن والأزمات، ويتعاونون في المحافظة على سلامة أوطانهم ومحاربة أعدائها، ويتعاونون في رعاية الفقراء والمعدمين والمرضى وذوي الحاجات.

وفي الحديث أنّ رسول الله ﷺ قال: «من كان عنده فضل ظهرٍ فليعد به على من لا ظهر

له، ومن كان عنده فضل زادٍ فليعد به من لا زاد له».

قال راوي الحديث - مسلم عن أبي سعيد - فذكر رسوال الله من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في الفضل. وهم متضامنون في المسؤولية عن صيانة الأخلاق العامة، لأنها السياج الذي يحمي المجتمع من الفوضى والفساد والانحلال، ومتضامنون في تأييد السياسة الرشيدة ومقاومة الفساد والانحراف.

هكذا يبني الإسلام العلاقات الاجتماعيّة على دعائم من المساواة والأخوة، والتكافل، وهي كفيلة أن تكوّن المجتمع المثالي في ترابطه، وتعاونه، وتراحمه، وتعاطفه وقوته.

(ب) العلاقات الاقتصاديّة:

ويقيم الإسلام العلاقات الاقتصاديّة في المجتمع على طائفة من الأصول والقواعد صالحة لأن يستقر عليها ويستقيم بها النظام الاقتصادي السليم، ويترك لأولي الأمر والعلماء وذوي الاختصاص المجتهدين في كل أمة أن يضعوا الأحكام التفصيليّة لهذه القواعد بما يلائم أحوالهم، ويعرض من شؤون معايشهم ويحقق مصالحهم دون خروج على مبادئ الدين وروحه في التشريع.

لقد قرّر الإسلام في هذا الصدد أصولاً عامة لا يتحقّق نظام سليم بغيرها منها:

- أنّ المال مال الله، وأنّ الناس مستخلفون فيه، وأنّه ذو وظيفة اجتماعيّة يجب أن يؤدّيها، ولا يحبس عنها باكتنازه وسوء استغلاله.

قال تعالى: ﴿**آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ**﴾[٤٤].

وقال: ﴿**وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ...**﴾[٤٥].

- كما قرّر الإسلام منع الاحتكار، والتحكم في السلع، وكنز الأموال ومنع الاستغلال بغير جهد وعمل، وحظر أكل الأموال بالباطل وقرّر أن يتداول المجتمع المال، ولا يكون دولة ×بين الأغنياء.

وفرض للضعفاء والمحرومين حقاً سنوياً معلوماً لا يقل عن جزء من أربعين جزءاً من ثروة الأمة وقد يزيد على ذلك بأمر الإمام وإحسان المحسنين[٤٦].

- وقرر الإسلام كذلك منع التصرفات التي تنطوي على سوء استخدام المال، واتخاذه

وسيلـة لظلم، أو إكراه، أو انتهاز للحاجة والعـوز، فحرّم الغصب، والغش، والربا، والقمار، والمراهنـات... ونحوهـا وأوجب أن يتدخّـل الحاكم لحماية المجتمع مـن التصرّفات الماليّة التـي تضـرّ به: كالاتجار بالمخدرات، والاتجار مع العدو، وتهريـب الأموال إلى خارج البلاد، والمضاربات لرفع الأسعـار... ونحوها، تطبيقاً للقاعدة الأساسيّة التي يقوم عليها التشريع الإسلاميّ في هذا المجال وهي وجوب درء المفاسد ومنع الضرر والإضرار.

وإذا تقـررت هذه القواعد والأصول في مجتمع إنسانيّ فقد أُرسيت فيه أركان الاقتصاد علـى أقوى أساس، ولا حرج عليه بعد ذلك أن يتّخـذ أيّ مذهب من مذاهب الاقتصاد، وأن يسمّيه ما شاء من الأسماء.

وإتمامـاً للتشريع الماليّ وضماناً لسلامـة المعاملات وتحقيق الأهداف المنشودة منها في تبادل المنافع وتحقيق مصلحة المجتمع حرص الإسلام على ربط المعاملات الماليّة بالعنصر الأخلاقـيّ والضمـير الدينيّ؛ لأنّ ضمـير المسلم متى كان يقظاً، يراقـب الله ويخشاه، كان في ذلـك ضمان لإتمام المعاملات كلها في الحدود التـي شرعها الله، والتي تلتقي بالفضيلة ومكارم الأخلاق.

والآداب التي يدعو إليها الإسلام في المعاملات كثيرة منها: الوفاء بالالتزامات والعقود، والصدق، وتجنـب الغش، والسماحة في البيع والشراء والقضـاء والاقتضاء، ومنها الأمانة وإيفـاء الكيل والوزن والقياس، والبعد عن التدليـس وإخفاء عيوب السلع، والحلف الكاذب لترويجها... إلى غير ذلك. قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ...**﴾[٤٧]. وقال: ﴿**أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ...**﴾[٤٨].

ومـرَّ النبي ﷺ على صبرة طعـام، فأدخل يده فيها، فنالت أصابعـه بللاً فقال: ما هذا يـا صاحب الطعام؟ قال: أصابته السماء يا رسـول الله. قال: أفلا جعلته فوق الطعام حتى يـراه الناس؟ من غشَّنا فليس منا». وقال: «اليمـين الكاذبة منفقة للسلعة ممحقة للبركة». وقال: «أنا ثالثُ الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه، فإذا خانه خرجتُ من بينهما وجاء الشيطان»... إلى غير ذلك.

ولا شـك في أنّ المعامـلات إذا تمّت في ظلّ هـذه الآداب يسّرت قضـاء المصالح وتبادل المنافـع، ونفت كثيراً من الخصومات والمنازعـات، بل زادت مودّة الناس، وتعاونهم، وكانت

مظهـراً من مظاهر التآلف والتآخي، والتعاون التي يسعى الإسلام إلى إقرارها ونشرها في المجتمع، لتدعيم أركانه وسلامة بنائه.

أهميّـة العمـل في البنـاء الاقتصـادي:

ولم يغفـل الإسـلام في مجـال التشريع الاقتصـادي العنايـة بوسيلة الإنتـاج، وتحقيق الاكتفـاء، والرخـاء في المجتمع، والأداة الفعّالة لعلاج مشـكلات الفقر فيه، ألا وهي العمل، فأمر بالعمل، وحثّ عليه ورغّب فيه بكلّ الوسائل، وجعله حقاً للفرد، وواجباً عليه في الوقت نفسـه، وجعـل الصبر علـى مشقّاته عبادة، كما حـثّ على إتقانه والمثابـرة عليه، ونفر من البطالـة والكسـل والاتّكال على الآخرين وبـيَّن الحلال المشروع والحرام غـير المشروع من الأعمال، كلّ ذلك ليدفع الناس إلى الأعمال البنّاءة النافعة، ويبعدهم عن الكسل والتبطّل، والأعمال المخرّبـة وأساليب الكسب الخبيثة التي تقوم على الخدع والاحتيال، وعلى الجشع والانتهازيّـة... ونحوهـا ممّا يـؤدّي إلى التنافـر والبغضـاء ويسيء إلى استقـرار المجتمع وسلامتـه. قال رسـول الله ﷺ: «إنّ الله يحبُّ العبد المحترف ويكـره العبد البطّال». وقال: «قيمـة كلّ امرئ مـا يُحسنه». ويروى أنّـه ﷺ صافح يداً خشنة من أثـر استعمال المسحاة، فقال: «هذه يدٌ محرّمة على النار»، «هذه يدٌ يحبها الله ورسوله».

(ح) العـلاقـات السياسيّـة:

واستكمـالاً لبناء المجتمع اعتنى التشريع الإسلامـيّ بوضع الأصول والقواعد التي يقوم عليها النظام السياسيّ الصالح في الأمّة على توالي الأزمنة واختلاف البلدان.

ومن قواعده في ذلك ما يأتي:

إقرار مبدأ الحكم، وإقامة نظام الجماعة على أساس اضطلاع أفراد منها بأمر الحكم فيها.

أساس نظام الحكم المسؤوليّـة المشتركة بين الإمام والرعيّة: الإمـام وكيل الأمّة يتولّى السلطة عنها، والأمّة متكافلة متضامنة معه في الحقوق والتبعات.

غاية الحكم تحقيق الأمن والرخاء والتقدم للمجتمع كله.

ومن دعائم نظام الحكم في الإسلام:

الشورى؛ لأنّها مظهر من مظاهر المساواة، وحرّية الرأي، وحرّية النقد، وكلّها قيم أصيلة في التشريع الإسلامي.

والشورى هي السبيل إلى تجنيد الكفايات المتنوّعة لخدمة المجتمع في شتّى الميادين وتحقيق الخبر المرجو له.

وأياً كانت الصورة التي يتّخذها تطبيق مبدأ الشورى فهي في جميع الحالات أمان من استبداد الحكّام بالشعوب، وأمان من الأخطاء التي يجر إليها الانفراد بالرأي، وهي أخطاء قد تعظم حتّى يستحيل علاجها.

قال تعالى: ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ**﴾[٤٩]. وقال: ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**﴾[٥٠].

العدل: وهو شريعة الله لحفظ كيان المجتمع وبقائه، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ....**﴾[٥١].

والعدل هو السبيل إلى إقرار الأمن في المجتمع، واطمئنان الناس على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم وحقوقهم، وتوجيه العزائم والجهود إلى الأعمال النافعة، وإثارة التنافس الشريف بين العاملين في سائر مجالات النشاط العمرانيّ، ولهذا جعل القرآن الكريم إقرار العدل بين الناس هو الهدف من إرسال الرسل وتشريع الديانات.

قال تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...**﴾[٥٢].

التعاون بين الحاكم والرعية؛ وذلك للعمل على النهوض بالمجتمع وحمايته، ودفع كلّ عدوان يهدد الأنفس والأموال والأعراض، ومقتضى ذلك وجوب طاعة الحاكم في ما تدعو إليه مصلحة الأمّة ويقرّه الدين، بل إنّ طاعته حينئذ مقرونة بطاعة الله ورسوله.

قال تعالى: ﴿**أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنكُمْ...**﴾[٥٣].

وأخيراً يجدر بنا أن نؤكد أن سيادة الأمة في الإسلام ومعها كل السلطات التشريعية والتنفيذيّة والقضائيّة تدور في إطار من مبادئ الدين وأحكامه، فهي لا تملك حرّية الاختيار في فلسفة الحكم وأهدافه وإن كانت تملكه في أشكال الحكم وأساليبه.

قـال تعالى مخاطباً نبيّه: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ﴾[٥٤].

العلاقـات الخارجيـة:

ويتصل بالتنظيم السياسي في المجتمع علاقة الأمة بغيرها من الأمم، وما ترتبط به من معاهـدات، والإسلام يبني هذه العلاقات الخارجية على أساس الحرية، واحترام الحقوق، وعـدم الاعتـداء. فـإذا امتدت إلى الأمّة يـد العدوان، فـإنّ الإسلام يأذن لأهلـه أن يردّوا العدوان بمثله، بل يوجب عليهم ذلك، وعندئذ تصبح الحرب ضرورةً لا مناص منها.

قـال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْـرِهِمْ لَقَدِيرٌ × الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ...﴾[٥٥].

كذلك يطبق الإسلام على المعاهدات التي تعقدها الأمّة الإسلاميّة مع غيرها من الأمم مبادئـه الفاضلة من الأمانة، والوفاء، والالتزام، وعدم الغـدر... فالوفاء لها واجب ديني، والإخـلال بهـا خيانة ما دام الطرف الآخر موفيـاً بها، أما إذا نقضهـا أو أخلَّ بشيء منها فالواجب نقضها ومواجهة الموقف بما تقتضيه مصلحة الأمة والمحافظة على حقوقها.

قـال تعـالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَـنِ الَّذِيـنَ لَمْ يُقَاتِلُوكُـمْ فِي الدِّيـنِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُـمْ فِي الدِّيـنِ وَأَخْرَجُوكُـم مِّـن دِيَارِكُـمْ وَظَاهَـرُوا عَلَـى إِخْرَاجِكُـمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[٥٦].

ثانيـاً: صيانـة المجتمـع

رأيت كيف استهدف الإسلام في تشريعه بناء المجتمع على أسس سليمة ودعائم قوية... وقـد عمـل كذلك على صون هـذا البنـاء وحمايته داخلياً مـن عوامل الفسـاد والانحلال، وخارجياً بردِّ المعتدين عليه.

وعمـاد هـذه الحمايـة في الداخل دعـوة إلى وجوه الإصـلاح بكافة الطـرف، ومقاومة المنكـرات والفساد وألوان الانحراف المادي والمعنوي في سائـر الميادين... وهو ما يعبّر عنه القرآن الكريم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إنّ الإسلام يعلق على هذا المبدأ في حماية المجتمع أهمية كبيرة؛ لأنّه يتضمّن حريّة النقد، وحرّية التعبير، وحرّية النصح، والتقويم، ويساعد على تكوين رأي عام مهذّب راشد، يوجّه إلى الخير والنفع وطرائق الإصلاح ويجعل من نفسه رقيباً على السلوك العام في المجتمع، فينبّه إلى أوجه الشر والفساد والانحراف ومسالكها، ويسعى إلى القضاء عليها. والإسلام، بذلك، يعمل على تربية الإنسان الفاعل المؤثر في مجتمعه، يصونه إذا صح، ويقوّمه إذا اعوج، يتأثر به ويؤثر فيه.

وفي العمل بهذا المبدأ حرص على سلامة المجتمع، ومحبة لخير الناس وتعاون في سبيل المصلحة العامة، وإيثارها على صالح الأفراد، وتأكيد لشعور الأفراد بالمسؤولية الجماعية. وفيه أنّ مصلحة الفرد تتحقّق من خلال مصلحة الجماعة.

إنّ الإسلام يوجب نقد الخطأ، ويوجب إسداء النصح للمخطئين، في لباقة وحسن تأت، وعلى المجتمع كله أن ينهض بهذا الواجب؛ لأن الحق ينبغي أن يحيا ويبقى ليعم نفعه، قال تعالى: ﴿**كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ**﴾ (٥٧).

وفي الأمر بهذا المبدأ تأكيد لأثره في صلاح المجتمع وصونه من الفساد. قال تعالى: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ (٥٨).

ويتصل بحماية المجتمع قصد الإسلام إلى تربية ضمائر الأمة وطبعها على الحياء، وعلى استنكار القبائح وعدم إظهارها، فهو يمنع المجاهرة بالمعاصي والكشف عنها؛ لأنّ ذلك إغراءٌ بها وطريقٌ إلى استحسانها، وأوّل الشر استحسانه كما يقال.

وإن المجتمع الذي تسير فيه الرذيلة رافعةً رأسها مجتمع منحرف، والمجاهرة بالرذيلة تشجيع على ارتكابها ونشر لها، ومظهرٌ لانعدام الحياء الذي هو منبع أصيل لكثير من ألوان السلوك المهذب.

وقد رغب النبي ﷺ في الحياء، فقال: «الحياء خير كله»، وعدَّه من شُعَب الإيمان، ومن الأخلاق الأصيلة في أهله فقال: «الحياء شُعبة من شُعب الإيمان»، وقال: «لكل دين خلق وخلق الإسلام الحياء».

أمّا حماية المجتمع من الخارج فيقصد بها المحافظة عليه من كيد الكائدين له، والطامعين فيه، والمعتدين عليه. والتشريع الإسلامي في ذلك واضح صريح.

فنصوص القرآن الكريم والسنة النبويّة التي تدور حول القتال والجهاد تفرض على المسلمين أن تكون علاقتهم بغيرهم علاقة أمن وسلام، حتى يقع عليهم عدوان ظاهر أو مبيَّت يتوقعونه ويخشون خطره، فعندئذ يجب الدفاع والجهاد، وقد يكون من الحيطة والحزم أن يكون الدفاع هجوماً دون انتظار لضربة العدو المتربص، ولذلك يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعًا**﴾ (٥٩).

وقد شرع الإسلام الجهاد في الأحوال الآتية:

رد الاعتداء على الأنفس، والأموال، والأوطان، ومدافعة الإيذاء والظلم. قال تعالى: ﴿**وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ (٦٠).

الدفاع عن العقيدة الدينيّة، ومقاومة من يعتدون عيها، أو يفتنون الناس في دينهم، أو يصرفون الناس عن الدخول في الإسلام، أو يحولون بينهم وبين سماع كلمته. قال تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ**﴾ (٦١).

مقاومة من ينكثون العهود وينقضون الاتفاقات، ولا يحترمون ما بينهم وبين المسلمين من معاهدات، قال تعالى: ﴿**وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ**﴾ (٦٢).

الدفاع عن الحق لإعلاء كلمة الله، وتخليص المرهقين بأثقال الظلم، وأوزار الاستعباد والاستغلال. وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ، فسأله: ما القتال في سبيل الله؟ فإنّ أحدنا يقاتل غضباً، ويقاتل حَمِيّة، فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله.

الهوامش:

١- (دكتوراه دولة في اللغة العربية وآدابها أستاذ مشارك في جامعة بيروت الإسلاميّة- كلية الشريعة).

٢- سورة المائدة: الآية ١٥-١٦.

٣- سورة يونس: الآية ٥٧.

٤- سورة النحل: الآية ٩٠.

٥- سورة النور: الآية ٥٥.

٦- الشيخ محمد عبده، رسالة التوحيد.

٧- عباس العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه.

٨- سورة الروم: الآية ٣٠.

٩- عباس العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه.

١٠- عبد المنعم خلاف، المادية الإسلاميّة وأبعادها.

١١- سورة الأنعام: الآية ١٢٥.

١٢- سورة الرعد: الآية ٢٨.

١٣- سورة سبأ: الآية ٤٦.

١٤- سورة العنكبوت: الآية ٤٥.

١٥- سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

١٦- سورة الروم: الآية ٣٩.

١٧- عباس العقاد، عبقرية محمد.

١٨- سورة الحديد: الآية ٢٢- ٢٣.

١٩- سورة البقرة: الآية ١٣٣- ١٣٤.

٢٠- سورة الكهف: الآية ١٠٧.

٢١- سورة الفرقان: الآية ١٢٠.

٢٢- سورة النساء: الآية ٣١.

٢٣- سورة النور: الآية ٢٩.

٢٤- عباس العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه.

٢٥- سورة النساء: الآية ٨٦.

٢٦- سورة الأعراف، الآلآية ١٩٩.

٢٧- سورة فصلت: الآية ٥٣.

٢٨- سورة الملك: الآية ٢٣.

٢٩- هو الأستاذ الكبير أبو الأعلى المودودي الباكستاني.

٣٠- علي عبد الواحد وافي، الحرية في الإسلام.

٣١- عبد المنعم خلاف، المادية الإسلاميّة وأبعادها.

٣٢- سورة النساء: الآية ٩٧.

٣٣- محمد الغزالي، هذا ديننا.

٣٤- سورة الأعراف: الآية ٣١، ٣٢.

٣٥- عباس العقاد، الإنسان في القرآن الكريم، دار الهلال، القاهرة، ١٩٦١م.

٣٦- سورة القصص: الآية ٧٧.

٣٧- سورة الروم: الآية ٢١.

٣٨- سورة الحجرات: الآية ١٣.

٣٩- سورة المائدة: الآية ١٨.

٤٠- سورة الحجرات: الآية ١٠.

٤١- سورة المدثر: الآية ٣٨.

٤٢- سورة النجم: الآية ٣٩- ٤١.

٤٣- سورة آل عمران: الآية ١٩٥.

٤٤- سورة المائدة: الآية ٢.

٤٥- سورة الحديد: الآية ٧.

٤٦- سورة النور: الآية ٣٣.

٤٧- دولة: بضم الدال؛ أي يتداوله الأغنياء فقط يكون مرة لهذا ومرة لذاك.

٤٨- عباس العقاد، ما يقال عن الإسلام.

٤٩- سورة المائدة: الآية ١.

٥٠- سورة الشعراء: الآية ١٨١- ١٨٣.

٥١- سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

٥٢- سورة الشورى: الآية ٣٨.

٥٣- سورة النساء: الآية ٥٨.

٥٤- سورة الحديد: الآية ٢٥.

٥٥- سورة النساء: الآية ٥٩.

٥٦- سورة المائدة: الآية ٤٨.

٥٧- سورة الحج: الآية ٣٩.

٥٨- سورة الممتحنة: الآية ٨- ٩.

٥٩- سورة الرعد: الآية ١٧.

٦٠- سورة آل عمران: الآية ١٠٤.

٦١- سورة النساء: الآية ٧١.

٦٢- سورة البقرة: الآية ١٩٠.

٦٣- سورة البقرة: الآية ١٩٣.

٦٤- سورة التوبة: الآية ١٢.